﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: 26 - 28]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

في إبراهيم وسُنَّتِه أسوةٌ وقدوةٌ للنّاس

لمّا بيَّن النَّظمُ الجليلُ ضلالَ الأقوام، بسبب اتِّباعهم التَّقليدَ دون الحُجَّةِ والبرهان، وبيَّنَ أنَّه طريقٌ فاسدٌ يورث سوءَ العاقبة، ويُحلُّ على أتباعه النّقمةَ: أردَفَهُ بقصَّة إبراهيم عليه السلام وهو أشرفُ آبائهم؛ مذكِّرًا إيّاهم بأنَّه قد ترك دينَ آبائه، وآثرَ اتِّباعَ الدَّليل على التَّسليم للتَّقليد، فيجبُ عليكم تقليدُه واتِّباعُه في طريقته[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرَآءٌ﴾: (برأ) أصلٌ يدُلُّ على التَّباعُدِ من الشَّيْءِ ومُزايَلَتِه[2]، والبُرْءُ: السَّلامةُ منَ السَّقَم، والبراءةُ من العَيب والمكروه[3]، وأصلُ البُرْءِ والبَراءِ والتَبَرِّي: التَّقصِّي ممّا يُكرَه مُجاورتُه؛ ولذلك قيل: بَرَأتُ مِنَ المرض، وبَرِئْتُ مِن فلان[4]، وتَبَرَّأتُ مِن كَذا، وأنا بَراءٌ مِنهُ وخَلاءٌ[5]، وهو في الآية مصدرٌ بمعنى: بريء، أي: متبرِّئٌ، والمقصودُ به فيها التَّخلِّي مِمّا يعبدُه أبوهُ وقومُه بالكُلِّيَّة.

2) ﴿فَطَرَنِى﴾: (فطر) أصلٌ يدُلُّ على فتحِ شيءٍ وإبرازه[6]، وعلى خروج الشَّيء أو نَفاذِهِ أوَّلَ أمرِه؛ بأنْ يُشَقَّ ما فوقه، ومِن معنى

(1) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 83، وينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 628.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(3) الخليل، العين: (برأ).
(4) الراغب، المفردات: (برأ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (برأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فطر).

الأوَّليَّة والبدء يأتي معنى الخَلْق، لأنَّه بدءُ الوجود[1]، وفَطَر اللّهُ الخَلْق: خَلَقَهم، وابتدأ صَنْعة الأشياء، وهو فاطرُ السَّماواتِ والأرض[2]، والفَطْرُ: الابتداءُ والاختراعُ، قال ابن عبّاس ﷺ: "كنتُ لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: 14] حتَّى أتاني أعرابيّانِ يختصِمان في بئر؛ فقال أحدُهما: أنا فَطَرْتُها، أي: أنا ابتدأتُها"[3]، والمرادُ به في الآية الكريمة: (خَلَقَني مِن عدمٍ)[4].

3) ﴿بَاقِيَةً﴾: (بقي) أصْلٌ يدلُّ على الدَّوام[5]، وبَقِيَ الشيءُ يَبْقَى بقاءً، وهو ضدُّ الفناء، يقال: ما بَقِيَتْ منهم باقيةٌ، ولا وقاهُم من اللّه واقية[6]، والعربُ تقول للعدوِّ إذا غلبَ: البقيَّةَ! أي: أبْقوا علينا، ولا تستأصِلونا[7]، والبَقاء: ثباتُ الشَّيء على حاله الأولى، وهو يُضادُّ الفناءَ[8]، والمرادُ به في الآية الكريمة: ثباتُ الكلمة، وعدمُ فنائها، فلا يَزال التَّوحيد فيهم[9].

4) ﴿عَقِبِهِۦ﴾: (عقب) أصلٌ يدُلُّ على تأخير شيءٍ وإتيانه بعدَ غيره[10]، والعَقِبُ: مُؤخَّرُ القَدَم، وكُلُّ شيءٍ يُعْقِبُ شيئًا فهو عَقيبُه؛ كقولك: خَلَفَ يَخْلُفُ بمنزلة اللَّيْل والنَّهار؛ إذا قضى أحدُهُما عَقِبَ الآخر؛ فهُما عقيبانِ؛ كلُّ واحدٍ منهما عَقيبُ صاحبه، وعَقِبُ الأمر: آخِرُه، وعاقِبَةُ كلِّ شَيءٍ: آخرُه[11]، وكلُّ شيءٍ خَلفَ بعد شيءٍ فهو عاقبٌ له، ولهذا قيلَ لوَلَدِ الرَّجل: عَقِبُه، وكذلك آخرُ كلِّ شيءٍ عَقِبُه[12]، وقولهم: ليست لفلانٍ عاقبةٌ، أي: ولد[13]، والمرادُ به في الآية الكريمة: الذُّرِّيَّة[14].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فطر).
(2) الخليل، العين: (فطر).
(3) الجوهري، الصحاح: (فطر).
(4) الخازن، لباب التأويل: 4/ 108.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بقي).
(6) الخليل، العين: (بقي).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (بقي).
(8) الراغب، المفردات: (بقي).
(9) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 270.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(11) الخليل، العين: (عقب).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (عقب).
(13) الجوهري، الصحاح: (عقب).
(14) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قِـصَّـةُ إبراهيـمَ مثالٌ شاهِدٌ على بُطلان التَّقليد

يقول تعالى حكايةً عَن قصَّة إبراهيم مع قومه المشركين: اذكُر أيُّها النَّبيُّ الكريمُ وقتَ قولِ إبراهيم لأبيه وقومِهِ الذين كانوا يعبدونَ ما يعبدهُ قومكَ: (إنَّني بريءٌ مِمّا تعبدونَ مِن شيءٍ إلّا الذي خلَقَني، فإنَّه سيوفِّقني لاتِّباع سبيل الرَّشاد)، وجعلَ إبراهيمُ عليه السلام كلمةَ التَّوحيد (لا إله إلا الله) شعارًا باقيًا في ذُرِّيَّته مِن بعده؛ لعلَّهم يرجعون إلى طاعةِ ربِّهم وتوحيدِه، ويتوبونَ مِن كُفْرِهم وذنوبهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو) في مُفتتح الجملة:

الـقـرآنُ يُـحـاجُّ الكُفّارَ بمنهجِهم وأقوالِهم

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بالواو على عُموم ما سبقَ ذِكْرُه مِن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾، وهو مِن عَطْفِ غَرَضٍ على غَرَضٍ، أي عطفُ الغرض مِن ذِكْرِ قصَّة إبراهيم على الغرض مِن ذِكْرِ ضلال الأمم السّابقة وتمسُّكِهم بالتَّقليد، والمعنى: (واذْكُرْ زمانَ قولِ إبراهيم لأبيه وقومه قولًا صريحًا في التَّبرِّي مِن عبادة الأصنام)[2]، ودلالةُ هذا العطف بيانُ أنَّ أعظَمَ آبائهم - إبراهيم عليه السلام - أولى الآباءِ استحقاقًا للتَّقليد، مع ثبوت الدَّليل على هذا؛ لأنَّ إيمانه عن دليلٍ وبرهانٍ، كما في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ فقد تمسَّكوا بدين آبائهم كما حكاهُ سِياقُ السِّباق تمسُّكًا شديدًا عنيفًا.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف (إذ):

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالظَّرف في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ وهو ظرفٌ للفعل المقدَّر

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 588، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 491.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 192.

كلُّ أجزاء قصَّة إبراهيم رادِعَةٌ عـنِ التَّقليد مُبيِّنةٌ ضلالَهُ

بـ:(اذكُر)، أي: (واذكُر الحادثَ وقتَ قولِ إبراهيم)[1]، ولعلَّه إنَّما أتى بالظَّرف في مفتتح القصَّة دون أن يقول: (وقال إبراهيمُ لأبيه)، وذلك للتَّنبيه على سياق القصَّة في زمانها، والغرضُ منه استحضارُ قِصَّة إبراهيم كامِلَةً مع ملابساتِها، لا القصَّةَ وحْدَها مجرَّدةً، وهذا أنسَبُ في غرضِ الوعظِ بالقَصص، فليسَ المرادُ حكايةَ أحداثِ القصَّة وحسب، ولو لم يُذكَرِ الظَّرفُ لانتبه السّامع إلى أحداث القصَّة مجزَّأةً، فالظَّرفُ يتضمَّن التَّنبيهَ على أنَّ مضمون القصَّة مسوقٌ لمناسبة السِّياق العامِّ للكلام وأغراضِه.

سِرُّ ذِكرِ إبراهيم عليه السلام:

النَّبيُّ إبراهيمُ عليه السلام أبٌ لهم؛ أفلا يتّبعونَهُ؟!

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ إيرادِ قِصَّةِ إبراهيم معبِّرًا باسمه مُجَرَّدًا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ وذلك لتذكير السّامعين مِن مُشركي العرب بأعظمِ آبائهم، فلمّا ذَكَروا أنَّهم يتَّبعون آباءَهم ذُكِّروا بأشرَفِ أبٍ لهُم ينتسبون إليه، وهو قد نبذَ الأصنامَ والتَّقليد، فكان ادِّعاؤُهم اتِّباعَ الآباءِ موجبًا لهم اتِّباعَ إبراهيم عليه السلام[2].

سِرُّ إيقاعِ قولِ إبراهيم على أبيه:

نَبْذُ التّقليد مِن سُنَّةِ الأجداد، فما بالُ أقوامٍ يتمسّكون بتقليد الآباء؟!

علَّق النَّظمُ الجليلُ قولَ إبراهيمَ بأبيه، وخصَّ ذِكرَه – وهو واحدٌ مِن القوم المخاطَبين عمومًا – في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾؛ وذلك للاهتمام بذِكرِه؛ "لأنَّ براءة إبراهيم ممّا يعبدهُ أبوهُ أدَلُّ على تجنُّب عبادةِ الأصنامِ بحيثُ لا يُتسامح فيها؛ ولو كان الذي يعبُدُها أقربَ الناس إلى موَحِّدِ الله بالعبادة، مثل الأب، ولتكونَ حكايةُ كلامِ إبراهيمَ قُدوةً لإبطال قولِ المشركين"[3]، فخُصَّ

(1) حاشية القونوي: 17/ 307.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 89.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 192.

ذكرُ أبيه ليتبيَّنَ لهم أنَّهم حينما تمسَّكوا بضلالِ الآباء فإنَّ إبراهيمَ قد قصَدَ أباه، وأسمَعَهُ كلمةَ التَّبرُّؤ مِنَ الضَّلال، أفلا يقتدون به؟!.

دلالةُ عطفِ (قومِه) على (أبيه):

في ذِكرِ الخاصِّ قبلَ العامِّ ترقٍّ في الدَّعوة

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ قومَ إبراهيم على أبيه في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ مفارقة الفردِ للجماعة أشدُّ مِن مفارقته للفرد، فبيَّن شدَّةَ ما لاقاه إبراهيم مِن نبذه التَّقليدَ، داعيًا إلى اتِّباعَه على ذلك[1]، فهو دعوةٌ لهم على استسهالِ ترك التَّقليد، وخلعِ تقليدهم مِن رتبة التَّقديس.

وفي تقديمِ الأبِ على القوم اهتمامٌ بإبطال كون حُجَّتِهم اتّباعَ الآباء؛ فقدَّم ذِكرَ الأب تنبيهًا على أنَّ أشرفَ آبائهم قد نبذَ تقليدَ أبيه، ثمَّ إنَّ مخالفة الأب والتَّخلِّيَ عن تقليده منزلةٌ مُلزِمةٌ لرتبةٍ ساميةٍ مِنَ التَّجرُّد للحقّ.

سِرُّ التَّوكيد في جملة مَقول القَوْل:

التَّصريحُ بالبراءة مِنَ الكفر يدلُّ على عُلوِّ الإيمان

حكى النَّظمُ الجليل مقولةَ إبراهيم ﷺ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّه قد جَهَر وصرَّح بالتَّبرُّؤ مِن دين آبائه[2]، وقد جاء مقولُ القَول مؤكَّدًا غايةَ التّأكيد؛ فجاء جملةً اسميَّةً، وقد تصدَّرها حرفُ التَّأكيد (إنَّ)، وأُظهِرَت نونُ الوقاية؛ وذلك لأنَّهم "كانوا لا يتخيَّلون أصلًا أنَّ أحدًا يكون مخالِفًا لهم"[3].

دلالةُ التَّعبير بالبراء مادَّةً، وصيغةً:

إعلانُ نبذ الشِّرك بأقصى درجات التَّبرُّؤ شأنُ العظماء

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ البراء في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ لدلالته على التَّقصِّي والابتعاد عمّا يُكره مجاورتُه[4]، فدلَّ على أنَّه أعلنَ كراهتَه لأصنامهم، وأنَّه نابذٌ لهم،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 414.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 192.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 415.
(4) الراغب، المفردات: (برأ).

ومُفارِقٌ لجماعتهم؛ والتَّبرُّؤ أوسعُ معنًى وأسخَى دلالةً؛ فهو أبلغُ في تحديدِ عقيدته، وجاء التَّعبيرُ بصيغة المصدر دون الوصف، فلم يقُلْ (بريء)، وذلك للمبالغة في براءته[1]، فجعَلَ نفسَه البراءَ ذاتَه، وهذا منتهى المبالغة في الاتِّصاف بصفةٍ ما.

معنى (ما) ودلالةُ التَّعبير بها:

براءةُ المؤمن مِنَ الأصنام وإن لم تُعبد

عبَّر النَّظمُ الجليل بـ(ما) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾؛ وقد أجاز أئمَّةُ التَّفسير أن تكون مصدريَّةً، والتَّقدير: (مِن عبادتكم)، وأن تكون موصولةً، والتَّقدير: (مِن الذين تعبدونهم)[2]، وقد نبَّه القونويُّ على أنَّ تقديرها موصولةً أبلغُ؛ "لأنَّه مستلزمٌ للأوَّل دون الأوَّل؛ لأنَّ المُرادَ بالمعبود الأصنامُ فقط، والبراءةُ من الأصنام أقوى في المَرام"[3]، وهو اختيار الإمام ابنِ عاشور، فالموصولُ أبلغُ في التَّبرُّؤ؛ لأنَّ البراءةَ مِنَ الأصنام تدلُّ ضمنًا على البراءة مِن عبادتها، والبراءةَ مِنَ العبادة فحسبُ لا تستلزم البراءةَ مِنَ الأصنام ذاتًا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه يلزمُ التَّبرُّؤ منَ الأصنام في كلِّ حالٍ، عُبِدَت أو لم تُعبَد، والمصدريَّةُ لا تدلُّ على هذا المعنى، فهي براءةٌ مِنَ الحدثِ لا منَ الذّات، أمّا الموصولةُ فبراءةٌ مِنَ الذّات وما بُنِيَ عليها، وفي الموصول دلالةٌ على العموم، فتكون البراءةُ شاملةً لِكُلِّ الأصنام، ولكلِّ معبودٍ من دون الله تعالى[4].

دلالةُ التَّعبير عنِ العبادة بالفعل المضارع:

تجدُّدُ البراءة مِن آلهتهم ودوامُها

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ العبادة بالفعل المضارع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ العبادة فعلٌ لا يُتصوَّر إلّا بحالةِ التَّجدُّد والدَّوام، فهو براءةٌ مِن العبادة في الحال، وفي

(1) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438.
(2) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 308.
(4) الواحدي، البسيط: 20/ 31.

الاستقبال[1]، والفعلُ المضارعُ يشير إلى دوام براءته؛ فلمّا تبرَّأ منَ المعبود، وأخبرَ أنَّهم يُجدِّدون عبادتَه: دلَّ ذلك على دوام براءتِه، ويُشيرُ كذلك إلى إصرارهم على تلك العبادة، وأنَّهم دائبون عليها.

دلالةُ حذف المفعول في: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾:

حذَفَ النَّظمُ الجليلُ المفعولَ به في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾، والتَّقدير: (تعبدونه)[2]؛ وذلك تهوينًا لمعبودِهم بإغفال ذِكرِه، وطلبًا للإيجازِ بحذفِ ما يُعلم مِنَ السِّياق، وحفظًا لنسَقِ الفاصلة.

نوعُ الاستثناء ودلالتُه:

البراءةُ شاملةٌ لكلِّ معبودٍ إلّا المعبودَ بحقٍّ ﷻ

أفاد الاستثناءُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ عَدَمَ التَّبرُّؤ مِنَ الخالق تعالى، أي: (أتبرَّأ مِن كُلِّ معبوداتكم إلّا مِن الله ﷻ)[3]، وهو صالحٌ لأن يكون استثناءً منقطعًا، وذلك بأنَّهم كانوا يعبدون أصنامهم فقط، ولا يعبدون الله تعالى، أو يكونَ متَّصلًا، إذا كانوا يعبدون الله تعالى ويُشركون معه الأصنام[4]، وإنَّما يكون متَّصلًا إذا اعتُبر الاسمُ الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ شاملًا للعاقل وغيره على إرادة الوصف، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 3] بمعنى: الطَّيِّبات[5].

علَّةُ التَّعبير بالموصوليَّة:

أهلُ الكفر لا يعملون بمقتضَى ما يعلمون

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾؛ لأنَّ الخالق معهودٌ معروفٌ، وهم معترفون بأنَّه كذلك ومقِرّون به؛ وهو معروفٌ عندهم بهذه الصِّلة ﴿فَطَرَنِى﴾؛ وهذا يُقوِّي كونَ الصِّلةِ تعليلًا في المعنى للنَّفي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 415.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 589.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629.
(4) ابن جزي، التسهيل: 2/ 257.
(5) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44.

والإثبات في السِّياق؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ بمنزلة (لا)، وقوله: ﴿مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ بمنزلة (إله)؛ إذ كلُّ معبودٍ يُسمَّى إلهًا؛ فآل ذلكَ إلى: (لا إلهَ إلّا الذي فطرني)[1].

دلالةُ التَّعبير بالفَطْر مادَّةً وصيغةً:

موجِدُ الإنسانِ مِـنَ الـعـدم هـو المستحقُّ العبادةَ وحده

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفَطر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ لدلالة الفَطر على ابتداء الخَلْق مِنَ العدم، فالفَطْرُ هو الابتداءُ والاختراعُ[2]، فعبَّر بذلك للدَّلالة على أنَّه هو الذي أوجدَهُ وأظهَرَهُ منَ العدم[3]، فنبَّه بهذا الوصف على دليل اعتقاده، أي: (الذي شقَّ العدمَ فأخرَجني منه، ثم شقَّ المشاعرَ والمُدرَك)، ومَن كان بهذه القدرة الباهرة كان منفردًا بالعظمة، مستحقًّا للعبادة وحده[4]، وجيءَ به على صيغة الفعل الماضي للدَّلالة على تحقُّق الفعل.

معنى (الفاء) في: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ ودلالةُ التَّعبير بها:

خـالِـقُ الـعـبـادِ ومـوجِـدُهـم هـو الـهـادي إلـى الـصِّـراط المستقيم

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الهدايةَ على الفَطر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ وذلك لِما فيها من معنى السَّببيَّة؛ فإنَّ الله تعالى الذي أنعمَ على العباد بإيجادهم قد أوجدَ فيهم ما يُهيِّئُ للهداية مِنَ العقل والحواسِّ؛ فإنَّ مَن قطع العلائقَ مع سائر المعبودات والضَّلالات جديرٌ بأن يمنحَهُ تعالى الهدايةَ، فكان قطعُ تلك العلائق هو السَّببَ في بلوغ الهداية[5].

دلالةُ التَّأكيد في الجملة:

أكَّد النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 21.
(2) الجوهري، الصحاح: (فطر).
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 299.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 7.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 416.

ردًّا على إنكار مَن يُنكِر تحقُّقَ وصولِه إلى دينٍ وهدايةٍ لَم يُدركها الآباء[1]، فكأنَّهم يحتكرون الهُدى.

دلالةُ التَّعبير بحرفِ الاستقبال (السين):

ثقةُ المؤمن بربِّه تزيدُه هدًى

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرفِ الاستقبال في قوله جلَّ شأنُه: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾؛ فإمّا أن تكون على بابها مِنَ الدَّلالة على المستقبل، ولمّا كان هو مهتديًا قبل قوله ذلك كان المعنى أنَّه سيهديه في المستقبل هدايةً زائدةً على ما كان له قبْلَ ذلك[2]، وهذا تعبيرٌ عن ثقتِه باللّه تعالى، وقوَّةِ يقينِه بمولاه[3]، وإمّا أنْ تكون لمجرَّد التَّأكيد، أي: سيثبِّتني على الهداية[4]، فهي إشارةٌ إلى تمكُّن الهداية منه الآن ومستقبلًا[5]، أمّا الدَّلالة على زيادة الهدى لَمن كان مهتديًا فصرَّح بذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: 17]، وقولُه تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم: 76]، وهذا يعني إدراكَهُ ﷺ عظيمَ شَرَفِ الإيمان والهداية، وقد أفادَ بهذه الهداية المقترنة بالسِّين هدايتَه في الاستقبال بعد أنْ أفادَ بقوله المحكيِّ في الشُّعراء: ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ [الشعراء: 78] الهدايةَ في الحال؛ وكأنَّه خصَّ هذا بالسّين لأجل ما عَقَبَها به مِن ذِكرِ عَقِبه ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾، فجعل هدايتَهُم هدايتَه[6].

دلالةُ التَّعبير بالهداية مادَّةً، وصيغةً:

التَّوفيقُ للخير والحقِّ محضُ نعمةٍ متجدِّدةٍ مِنَ الله

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الهداية في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾، للدَّلالة على غاية إحسانِه تعالى إليه، وتفضُّلِه عليه؛ لأنَّ الهداية هي الدَّلالةُ بلُطْفٍ؛ فمَن أحسنَ بالإخراجِ مِنَ العدم يُحسن بالرَّحْمة؛ بالإرشادِ اللّطيف الجميل إلى الحقِّ والصَّوابِ والهُدى؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 416.
(2) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 633.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44 - 45، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 386.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 193.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 7.

وزادَ في إحسانه تعالى بأنْ كانت تلك الهداية متكرِّرةً مستمرَّةً، على جهة التَّجدُّدِ والحُدوث[1].

دلالةُ (الواو) في صدر الجملة:

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةَۢ فِى عَقِبِهِۦ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ للدَّلالة على أنَّه قد أعلَنَ قولَه ذلك في قومه المعاصِرين، وأنَّه قد جَعَل تلك المَقولةَ باقِيةً في ذُرِّيَّته ينقلونها إلى معاصريهم مِنَ الأُمم؛ وذلك أنَّه قد أوصى بها بَنيه، وأنْ يوصوا بَنيهم بها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: 132][2]، وجاء العطفُ بالواو لأنَّ حادثة توريث الكلمة للذُّرِّيَّة مُغايِرٌ لحادثةِ إعلانِها في قومه المعاصرين، فهي فضيلةٌ ومنقبةٌ أخرى لإبراهيم عليه السلام.

مِـن فـضـائـلِ إبراهيمَ توريثُه التَّوحيدَ لِذُرِّيَّته

دلالةُ التَّعبيرِ بالجَعْل مادَّةً، وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالجَعْل في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةَۢ فِى عَقِبِهِۦ﴾؛ لدلالته على التَّصيير، بأن يُصَيَّر الشَّيءُ على حالةٍ دون حالة[3]، فقد جعل تلك المقولةَ ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ لشيءٍ آخَر؛ فهو اتَّخذها شعارًا لِعَقِبِه يتوارثونه على مَرِّ الزَّمان[4]، ونظْمُ الجعْلِ فعلًا ماضِيًا يدلُّ على غاية اهتمامِه بذلك، وحَسْمِه وفَصْلِه في ذلكَ.

اتِّخاذُ التَّوحيدِ شِعارًا للذُّرِّيَّة أسمى تركةٍ يترُكها الأب

بيانُ مرجع الضَّمائر في: ﴿وَجَعَلَهَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ ضميران؛ ضميرُ الفاعل، ويُراد به إبراهيمُ عليه السلام، والضَّمير المنصوبُ يعود على المقولة في قوله

مِـن شـأنِ التَّوحيدِ أنْ يبقَى ويستمرَّ

(1) الراغب، المفردات: (هدى)، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 127.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 193.
(3) الراغب، المفردات: (جعل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 194.

تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ فهي بمعنى التَّوحيد، والمعنى: (وجعَل إبراهيمُ كَلِمَةَ التّوحيد باقِيَةً في ذُرّيَّته)[1]، فقد أنَّثَ القرآنُ الكلامَ بعَوْدِ الضَّمير عليه مؤنَّثًا؛ حملًا له على الكلمة؛ وإنَّما يُقال للكلام: (كلمة) إذا كان كلامًا سائرًا على الألسنة مُتمثَّلًا به، أو كان الكلامُ مجعولًا شِعارًا؛ كقولهم: (لا إله إلا الله كلمةُ الإسلام)، وما هنا مِن هذا الثّاني؛ فالمعنى: (جعل إبراهيمُ قولَه ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ شعارًا لِعَقِبِه)، فلا يخلو عقبُ إبراهيم مِن موحِّدين لله، نابذين للأصنام[2]، وجعلُ الكلام كلمةً يعني أنَّه مِنَ الممكن جدًّا بقاؤُه، وأنَّه لا تُعانِدُه فطرةٌ، ولا عقلٌ، ولا واقعٌ.

سِرُّ التَّعبير بـ(البقاء) مادَّةً، وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالبقاء في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾؛ لدلالته على ثباتِ الشَّيءِ على حالِه الأولى[3]، وذلك للتَّعبير عن جَعْل تلك المقولةِ ثابتَةً في ذُرِّيَّته[4]، بأن تكونَ موروثَةً بين أجيالهم، محفوظةً مِنَ الضَّياع، متداولةً بينهم[5]، وفي هذا التَّعبيرِ إشعارٌ بأنَّ هذه الكلمة هي سرُّ بقائِهم بقاءً مُرضِيًا لله ﷻ؛ فَهُم أحياءٌ محفوظون بهذه الكلمة، وبضياعها يَضيعون ويَهلكون، ونظْمُ البقاءِ اسمًا إبلاغٌ في تقرير مدلولِه؛ فصيغةُ اللَّفظ مشاكِلةٌ لمعناه.

ثبوتُ التَّوحيد في الذُّرِّيَّة راسِخٌ لا يزول

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِى﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ ﴿فِى﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ الذُّرِّيَّة كانت ظرفًا لبقاء هذه المقولةِ، بأنّها تتنقَّل بين الأجيال من

ذُرِّيَّــةُ إبراهيم لا تـخـلـو مِـنَ التَّوحيد؛ فهي كالوعاء الحاوي له

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 633، وابن جزي، التسهيل: 2/ 257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 194.
(3) الراغب، المفردات: (بقي).
(4) ابن جزي، التسهيل: 2/ 257.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 387.

ذرِّيَّته؛ "فلا يزالُ فيهم مَن يوحِّدُ الله تعالى، ويدعو إلى توحيدِه"[1]، وكأنَّ إبراهيم عليه السلام يريد أنْ يكون التَّوحيدُ بين لحم ذُرِّيَّته وعَظْمِهم، فلا يخرج منهم بحال؛ فهو كائنٌ في كلِّيَّتهم؛ يهتدون به في كلِّ أحوالهم؛ لأنَّه أشرفُ ما يحتوي عليه قلبُ العبد.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(العقِب):

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالعَقِبِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾؛ لدلالته على إتيان شيءٍ بَعدَ غيرِه، كما سُمِّي النَّبيُّ ﷺ العاقبَ؛ وذلك لأنَّه عَقِب مَن كان قبله مِنَ الأنبياء[2]، واستُعمِل هنا للدَّلالة على الذُّرِّيَّة التي تأتي بعد الرَّجل، أي: (جَعَلَ التَّوحيد باقيًا في ذُرِّيَّته)[3].

ذُرِّيَّةُ الرَّجل تعقُبُه في الحياة وتأتي بعده

دلالةُ التَّعبير بحرف التَّرجِّي:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف التَّرجِّي (لعلَّ) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ وقد أجاز أئمَّةُ التَّفسير أن تكون هنا مستَعمَلةً للتَّعليل، فهو تعليلٌ لِجَعْلِه تلك الكلمةَ باقيةً في ذُرِّيَّته، أي: (ليدعو الموحِّدُ منهم المشركَ جيلًا بعد جيل)[4]، وأجازوا إبقاءَ دلالتها على الرَّجاء، ويكونُ الرَّجاءُ مِن إبراهيم عليه السلام؛ فهي لإنشاء الرَّجاء[5].

كلمةُ التَّوحيد منارةٌ يعودُ إليها مَن زاغ عنِ الحقِّ وحاد

دلالةُ التَّعبير بـ(الرُّجوع) مادَّةً، وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ (الرُّجوع) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لدلالة الرُّجوع على العَود إلى ما كان منه البدءُ[6]، فلمّا تَرَكَهم على الهدى، وكان مِنَ المعلوم أنَّ الإنسان قد يزِلُّ عن جادَّة

تجدُّدُ الرُّجوع إلى الكلمة الباقية تحقيقٌ لبقائها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 45.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 127، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 45.
(5) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438.
(6) الراغب، المفردات: (رجع).

الحقِّ: جعلَ إبراهيمُ ﷺ تلك الكلمةَ شعارًا لذرِّيَّته؛ لتكون مثابةً لهم، فيرجعوا إليها بعد الضَّلال[1]، وجاء التَّعبير بصيغة الفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّد الرُّجوع واستمراره وتَكراره؛ لأنَّها كلِمةٌ باقيةٌ.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الفَطْر والخَلْق:

الفَطْرُ: إظهارُ الحادِث بإخراجه مِنَ العدم إلى الوجود؛ كأنَّه شقَّ عنه فظهَر، وأصلُ البابِ الشَّقُّ، ومع الشَّقِّ الظُّهورُ، ومِن ثَمَّ قيل: تفطَّر الشَّجر؛ إذا تشقَّقَ بالورق، وفطرتُ الإناءَ شققتُه، وفطَر اللّهُ الخَلْقَ أظهرَهُم بإيجاده إيّاهم كما يظهر الورقُ؛ إذا تفطَّر عنه الشَّجَرُ؛ ففي الفَطرِ معنًى ليس في الخَلْقِ؛ وهو الإظهارُ بالإخراج إلى الوجود، وأمّا الخَلْقُ فهو التَّقْدير؛ يُقال: خلقتُ الأديم، إذا قدَّرْتَه خُفًّا أو غيره؛ وخلقَ الثَّوبُ وأخلَقَ، لم يبقَ منه إلّا تقديرُه؛ وإنَّه لخليقٌ بكذا: أي: شبيهٌ به؛ كأنَّ ذلك مُقَدَّرٌ فيه، ويُستعمل الخَلْقُ في إبداع الشَّيء مِن غير أصلٍ ولا احتذاءٍ[2]، فالفَطرُ يدلُّ على أوَّليَّةِ الخَلْقِ، والخَلْقُ هو الإيجادُ على غير مثالٍ سابقٍ، وفي الآية الكريمة عبَّر بالفَطْر إشارةً إلى دليلِ اعتقادِه؛ وهو أنَّ الله تعالى قد شقَّ العدَمَ، فأخرجه منه، ثمَّ شقَّ المشاعر والمُدرَك.

الفَطْرُ إيجادٌ على هَيئةٍ مقرَّرةٍ، والخَلْقُ هو الإيجادُ على غير مثالٍ سابقٍ

العقِب والولد:

العقبُ أعمُّ مِنَ الولدِ؛ لأنَّ أصله مِن: (عقب) الذي يدلُّ على تأخير شيءٍ وإتيانه بعد غيره[3]، وكلُّ شيءٍ خَلفَ بعد شيءٍ فهو عاقِبٌ له، ولهذا قيل لوَلَدِ الرَّجل عَقِبه، وكذلك آخرُ كلِّ شيءٍ عَقِبه[4]،

العقب أعمُّ مِنَ الولد

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 99.
(2) معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزءًا من كتاب السيد نور الدين الجزائري، ص: 224، و407، والرّاغب، المفردات: (خلق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (عقب).

وقولهم: ليست لفلانٍ عاقبةٌ، أي ولدٌ[1]، أمّا الولدُ فهم أبناءُ الرَّجل، فالوَلَدُ: الابن والابنة، وهُمُ الأهلُ والوَلَدُ[2]، فهو أخصُّ مِنَ العقب؛ فعبَّر القرآنُ في الآية بالعقب؛ لأنَّه أراد عمومَ الذُّرِّيَّة[3]، فيشمل جميعَ ذرِّيَّته التي جاءت بعده.

(1) الجوهري، الصحاح: (عقب).
(2) الراغب، المفردات: (ولد).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"